توبة المحروم !...

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

بقي في « نيويورك » يكدح وراء الرزق الشرود عشر سنين دأبا ، ثم أصاب حظاً سعيداً بعد نحس ، وارتجع[1] مالاً كثيراً بعد بؤس ، فعاد — وهو على عتبة الأربعين — إلى مسقط رأسه (الميناء)[2] بلدتنا الهادئة المنعزلة التي توشك ألا تسمع فيها الاجال الطبيعة ، والا تحفظ لها ألا الاستعصام بالتقاليد .

وما جداك أن أصف لك « ميناءنا » الجميلة ، فما أراك راغباً في الوقوف على ما صنع الغنى بصاحبنا الذي أوى إلى بلدته بعد غيبة طويلة ؛ فهل غردت له بلابل السعادة أغاريدها الحلوة ، وهل هتفت له هتفاتها الناعمة ، أم نعبت له غربان الحوادث بشقاء جديد ، ولاعت قلبه بهوان شديد ؟

* * *

علمت أنه كان في « ميناتنا » قبل أن يتسع رزقه ويرفه عيشه مضرب المثل في قناعة العفيف ، وعزة الشريف ، سليم الفطرة معتدل المزاج حنيف الدين ؛ فرجوت ألا ينقلب سهوان من ماضيه ، ووددت لو أبقت يد غناه على ذكرى فقره فلم تمح صورتها من مخيلته ، ولم تبدد آثارها في فؤاده ، ولم تمر شجرتها أمام عينيه ، وتمنيت أن يكون له من صدق الأريحية وكرم الهزة ما يذكره بالفقراء والمعوزين الذين لا عمل لهم في بلدتنا إلا في البحر ، فلا يحرمهم من صدقات يوزعها ، أو زكوات يؤديها ، أو ثمرات يجبيها ، أو مشروعات يحييها ، أو مصانع يؤسسها ، أو مدارس يفتتحها ، أو ملاجيء ينشئها ، وألا يكون المال قد أطغاه ، وختم على قلبه فأعماه !

ولم يكن رجائي إلا كرجاء الذي أراد أن يشم الريحانة فألفاها ذابلة ، فما رضخت يده خيراً ، ولا اصطنعت معروفاً ، ولا كسبت معدوماً ، ولا أعانت في نائبة ، ولا ساعدت في خطب ، وإنما نثرت المال على الهوى يمنة ويسرة ، وفي الشهوة عيشاً وبكرة ، حتى عادت صفراء خالية ، وباتت على إسرافها باكية ...

* * *

أبطره الغنى فملكه العجب ، وأفسده الفراغ فخبب إليه الطيش فأصبح سكران لا يصحو ، هيمان لا يعي ، « غفلان لا يفيق »[1] ، وأضحى لا يحفل في الناس أحداً ، ولا يقيم لكبير وزناً ، ولا يرعى لصغير حرمة ، ولا يرقب في ضعيف إلا ولا ذمة ، وإنما كان ينظر إلى الجميع نظرة الفيل إلى البعوض أو الجمل إلى النمل ، «لا يحس منهم من أحد ولا يسمع لهم ركزاً»

ومنذ ذلك الحين أمسى أهل بلدنا إذا أرادوا أن يصفوا الرجل الشهوان الذي ما ينفك يوبق جسده برغائبه ، ويدسي نفسه بمعايبه ، قالوا وهم يتخافتون : أهو أشد من فلان شهوة ، وأكثر منه جهالة وصبوة ؟ !

وأنى لهم السكوت على مآثمه التي جرها عليه بذخه وسرفه ، ولهوه وعبثه ، وإنه لم يكتف ببنات الهوى يركبهن سيارته الفخمة ، وينتقل بهن في شوارع البلدة المحافظة تحت الأسماع والأبصار ، ولم يقنع بالخمرة يتهالك على شربها آناء الليل وأطراف النهار ، ولا بالموائد الخضر يرودها غير ملول ، ولا بالليالي الحمر يواصلها غير خجول ، ولا بداره التي استحالت ندياً للأشرار ، ولا بشقاقه مع الأبرار والفجار ، وإنما راح يكال جميع ذلك بشرفه يدوس عليه ، وبعرضه يفرط به ، وبدينه يقصر فيه ، وبوطنه يحقره ، حتى أضحى شعور الناس لا يأتلف إلا على مقته ، وباتوا من كرههم له يديرون في أفواههم ألسنة حداداً تلعنه ، وينظرون صيحة القدر الراصد تأخذه وهو يعمه في طغيانه ، ويتباهى بعدوانه ...

* * *

ولم يطل إملاء الله له واستدراجه ، فما مضى عام واحد على طيشة ولهوه حتى خر من سقفه المرفوع ، وتهاوت من شجرته الجذوع والفروع ، وغدت جنته الفينانة ذابلة الورود ، ميتة الأعشاب ، ساكتة البلابل «فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها

---

(١) جمع . (٢) الميناء أسكلة على شاطيء البحر في مدينتنا طرابلس الشام .

(١) أذكر أني رأيت لأستاذنا الزيات مثل هذا التعبير .